

سيرة الظاهر بيبرس لابن شداد وأضواء على دولة المماليك البحرية

القاهرة - محمد عويس

شهدت المنطقة العربية في العصرين الأيوبي والمملوكي صراعاً مريراً بين المسلمين والصلبيين من جهة، وبين المسلمين والمغول من جهة أخرى، وحصلت معارك خلدتها التاريخ كمعركة «حطين» التي هُزم فيها الصليبيون على يد صلاح الدين، ومعركة «عين جالوت»، التي انتهت بهزيمة جحافل المغول على يد المماليك، وبرز سلطانين كبار أمثال صلاح الدين، وبيبرس، وقلاوون، سطر لهم المؤرخون سيرا كانت بمثابة اعتراف بما قدموه من أعمال جليلة وبطولات، ومن هذه السير (تاريخ الملك الظاهر / بن شداد / ٤٤٨ صفحة / تحقيق أحمد حليط / سلسلة الذخائر / قصور الثقافة / القاهرة).

عاش ابن شداد في ذلك العصر الذي بلغ فيه الصراع بين المسلمين والصلبيين والمغول الذروة لا سيما مع بدايات النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكانت هذه الفترة بمثابة الأيام العصيبة على المسلمين، إذ استطاع المغول بقيادة هولاكو، حفيد جنكيز خان، أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الحين، وقضوا على الدولة الخوارزمية وحطموا قلاع الإسماعيلية، وأسفطوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي، واستولوا على بلاد الشام بأسرها، ولم يبق أمامهم إلا مصر آخر معقل للإسلام في الشرق، وهال المسلمين ما حل بهم من نكبات، فراوا في القتال ضد المغول ضرورة حتمية يتوقف عليها مصير ما تبقى لهم من وجود، فكانت موقعة عين جالوت بمثابة المعركة الفصل التي انتهت بهزيمة المغول وانحسارهم نهائياً عن بلاد الشام، وكانت عين جالوت أبعد نقطة في سورية وفلسطين باتجاه مصر. وكان ابن شداد شأهد عياناً عليها يعرف دقائقها ونفاصيل أمورها، ولهذا كان لما يكتبه عنها قيمة تاريخية بالغة.

وابن شداد هو عن الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد بن إبراهيم بن شداد، أبو عبدالله الأنصاري الحلبي، مؤرخ جغرافي، ولد في حلب في السادس من ذي الحجة عام ٦١٣ هـ/أذار ١٢١٧ م، وعاش فيها حتى كان الغزو المغولي لحلب عام ٦٥٨ هـ/نيسان ١٢٦٠ م، لجأ إلى الديار المصرية، وانخرط في خدمة السلطان الملك الظاهر بيبرس الذي أحسن وقادته وأكرمه وأقدر ما يليق بمنزلته، إلى أن توفي في السابع عشر من صفر عام ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م، ودفن بسيفح المقطم ومن مؤلفاته: «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، «جنى الجنين في أخبار الدولتين» و«الفرقة الشدادية الحميرية»، أو «تحفة الزمن في طرف أصل العيين»، وله كتاب آخر هو تكملة لكتاب المؤلف في التاريخ لابن الأثير على حد ما ذكره ابن شداد نفسه.

ونسبه لبني شداد أوجد التباساً بينه وبين معاصره القاضي بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد، المؤرخ الحلبي المشهور الذي حظي بتقوى وصيت لا بدائنه فيهما أحد من المؤرخين المعاصرين له، وقد استمد ذلك من موقعه القريب من السلطان صلاح الدين الكبير، وساهم أيضاً في ذلك الالتباس اشتراك المؤرخين في كتابة السيرة السلطانية، على رغم الزمن العبد الذي يفصل بين الحقبة التي أرخ لها كل منهما.

وقارئ كتاب «الأعلاق الخطيرة» - الجزء الثالث - تاريخ الجزيرة، يلحظ تلك المنزلة التي كانت لابن شداد عند الحكام، حيث يُحدثنا في كتابه هذا عن علاقته المتينة بالملوك الأيوبيين وتقتهم به، وعندما حل المغول بميانارقيس ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م، كلفه السلطان بمرافقة عائلته من دمشق، إلى حلب، كما أوكل إليه مهمة التفاوض مع المغول، وتعبيراً عن إخلاصه لبيبرس وضع له كتابين: الأول في حياته، وهو الجزء الأول من «الأعلاق» تاريخ حلب، أما الكتاب الثاني فهو السيرة.

ويتناول هذا الجزء العميق من السيرة حياة السلطان في الفترة الواقعة ما بين ٦٧٠ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٢ - ١٢٧٨ م، وما تيسر من أمور دفته وما وفق عن روحه، وينتهي بلائحة إجمالية لحصال السلطان وإنجازاته وأوصافه الحسنى، وقسم ابن شداد مؤلفه إلى ٢٨ فصلاً، رتب في شكل يسمح بتداخلها، وفي ثانياً فصول هذا الجزء يكون السلطان محور الحادثة التاريخية، فقد رصد ابن شداد تحركاته ونشاطاته المتعددة على الصعيد الداخلي والخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي: يطعن ابن شداد كيف وطد بيبرس دعائم حكمه باستيلائه على آخر معقل الإسماعيليين، ومعاقبته جيرانه النوبيين الذين كانوا يحرصون برعاياه بين الحين والآخر، وغوه عن أمراء كان قد سجنهم بسبب معارضتهم ومحاولاتهم الجادة للتحلل في شؤون الدولة والاستقواء عليها «الإفراج عن الديماطي وسنجر الغنمي وكتوت»، ومن تاديبه الولاة المتمردين «كما فعل مع ابن عجلون»، ومن توبيده لمن لا يسهل الإيقاع بهم من كبار الأمراء أمثال الأمير قلاوون الذي قربه منه باختياره ابنته زوجة لولده الملك السعيد، ومحاولاته الجادة لتدعيم زعامته للعالم الإسلامي المعروف في ذلك الحين، تلك الرعاية التي اكتسبها عبر مواقفه المشهودة في سبيل الإسلام، الم ييسار إلى إحياء الخلافة الإسلامية

في القاهرة عام ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م، بعد سقوطها على يد هولاكو في بغداد؟ ألم يحزم الخمر مراعاة منه لشعور المسلمين؟ وقد كان هذا التحريم السليم في شفق الطوائسي صدر الباز، ألم يعاقب أقرب المقربين إليه بالسجن حتى الموت «الشيخ خضر» لكونه اقترب أعمالاً تدبها التسريفة والأخلاق، ألم يبادر إلى بناء الجوامع وترميمها «بناء جامع بدير العين فهاصر مصر» ألم يؤدم مكة المكرمة حاجياً مهتماً بكسوة كعبتها، مقيماً لها الاحتفالات السنوية التي تليق بالمناسبة؟ كل ذلك جعل السلطان الملك الظاهر في مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى، ثم إن ابن شداد يطعن على جوانب أساسية أخرى في سياسة الرجل الداخلية وحكمتها في إدارة شؤون البلاد، ومن ذلك أنه تراجع عن ضريبة فرضها عندما علم بامتعض الرعية منها، كما أنه كان دائم السهر على أمن البلاد وسلامتها، فيحدثنا ابن شداد أن السلطان كان في حركته دائمة متقلداً بين شطري المملكة، مرة في موكب ظاهر وثامنة على خيل البريد وأخرى متخفياً ليطلع عن كذب على أحوال النواب والولاة، وبذلك ضمن استقرار مملكته.

ويطعن ابن شداد على هو آيات بيبرس المختلفة، كلعبة القيق (لعبة لدى التتار تشبه الفنس)، ورحلات الصيد والتنزه في منطقة الأشرام والبحيرات، أما

على الصعيد الخارجي فسلط ابن شداد أضواء كاشفة على سياسة بيبرس الخارجية التي تجلت في نوعين من النشاط: عسكري وديبلوماسي. ففي مجال النشاط العسكري: يطعن المؤرخ على المواجهة المريرة بين السلطان والمغول الذين ظلوا، على رغم هزيمتهم القاسية في «عين جالوت» - يشككون مصدر قلق للدولة المملوكية، بحيث لم تخل سنة ما بين ٦٧٠ - ٦٧٥ هـ إلا وكان لهم نصيب في صنع أحداثها، لقد هاجموا حران عام ٦٧٠ هـ وخربوها ودمروها تدميراً كاملاً، لكن السلطان ظفر بهم في العام ذاته على نهر الفرات، ويحدثنا ابن شداد عما فعله بيبرس من صنع جسر عبر عليه العسكر ومن بسالة تجلت باقتحامه النهر مقدماً الجند... ثم عادوا عام



٦٧٤ هـ ونزلوا على قلعة البيرة لكنهم، نظراً للمقاومة الضاربة التي لاقوها من حامية القلعة، وبسبب وصول الأخبار بتوجه السلطان نحوهم، ولوا الأدبار راجعين من حيث أتوا، وصمم السلطان على غزو الروم ومواجهة المغول في عفر دارهم، وفي هذا المجال يخبرنا ابن شداد عن الاستعدادات الكبرى للظاهر بيبرس وخروجه من الديار المصرية عام ٦٧٥ هـ فاقصداً بلاد السهول، ثم تحصل معركة الفاصلة بين الفريقين في «هولي» (هولي) من صحراء البليستانيين، والتي انتهت بهزيمة المغول بعد مقتل الكثيرين منهم في ساحة القتال، الأمر الذي سهّل دخول السلطان إلى قيصرية عاصمة بلاد الروم وجلوسه بالتالي على نختها وإطلاق الدعوات له في العازن وضرب السكة باسمه. هذا على جبهة المغول، أما على بقية الجبهات

فيطلقنا المؤرخ على حدثين مهمين: الأول هو غزوة سيس التي قام بها السلطان عام ٦٧٣ هـ ضد الأرمن والتي عاد منها محملاً بالغانائم الوفرة، والثاني تجلّي الحملة التي وجهها ضد بلاد النوبة، وأما في النشاط الدبلوماسي: فيستفاد من السيرة أن بيبرس لم يعتمد في رسم علاقاته الخارجية على القوة الضاربة فحسب، بل إنه استعمل سلاحاً لا يقل خطورة عن السلاح العسكري تمثل بإقامة العلاقات الدبلوماسية مع المغول من جهة ومع الفرنجة من جهة أخرى.

لازم ابن شداد أخاه الملك العادل سلامش، ثم الملك المنصور قلاوون، وذكر هؤلاء في «العلاقي» ومدحهم مثنيًا على حسن التفاهم إليه وتكريمهم له. وفي كتابته لسيرة بيبرس اعتمد ابن شداد في الواقع على مشاهداته ومعلوماته الخاصة من دون اللجوء إلى روايات المؤرخين المختلفة، فاستطاع بهذه الطريقة أن يكشف لنا عن حوادث مهمة في حياة الملك الظاهر من النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية بالقدر الذي لا نجد له مثيلاً في المصادر التاريخية الأخرى.

بالنسبة للمغول عمل بيبرس على توسيع شقة الخلاف الذي كان مستحكماً فيما بينهم، فقد تحالف مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق الذي اعتنق الإسلام، فعزز علاقاته معه وبادله المبعوثين والهدايا، ولا شك في أن هذا الحلف كان موجهاً ضد عدوهما المشترك المتمثل بدولة إيلخانات فارس التي كان يحكمها هولاكو وأولاده.

أما بالنسبة للحوادث التي لم تسمح له الظروف أن يكون فيها شاهداً عياناً، فكان يلجأ إلى نوع آخر من المصادر تمثل بما سمع وما قرأ، وفي هذا المجال، عندما يورد حادثة معينة يسمى المصدر الذي استقى منه، وعادة ما يكون هذا المصدر شخصاً بارزاً (قاضي قضاة، أو أحد كبار الموظفين أو أشخاصاً آخرين موثوقاً بهم...) مقدماً المعلومات التي استقاها بالعبارات: «حكى لي (فلان)»، «ما حكاه لي (فلان)»، «حكى لي من أثق به»، وفي حال شكه في إحدى الروايات حمل صاحبها وحده مسؤولية ما روي منهيًا كلامه بعبارة: «والعهدة عليه في ما حكاه»، وأحياناً يهيم مصدره فيستهل كلامه بعبارة «ومن غرائب ما يحكى...» أما الوثائق التي اعتمدها فلا ينسبر إليها صراحة باستثناء ما ورد في حديثه عن غزوة سيس، حيث يفهم أنه استند في تاريخه لهذه الواقعة إلى رسالة بعثها إليه أحد الوزراء المشاركين في الحملة. وجرى ابن شداد ما كان شائعاً في عصره من أصول كتابية، فقد كان أسلوبه عادياً عمد فيه إلى السجع الذي كان يأتي أحياناً سهلاً وطبيعياً، وأحياناً أخرى متكلفاً. كما أن سيطرة المحسنات اللفظية على بعض الجمل جعلها جملاً غير طبيعية وعديمة المعنى.

وينسبر ابن شداد إلى أن بيبرس اتبع في حربه مع المغول أساليب المكر والخداع بعيدة النظر، فهو في الوقت الذي عاهد فيه أبناء بركة خان على تحالفه معهم ضد أبغا لبقاء تنازلهم عن جميع ما اغتصبه التتار من المسلمين، فإنه لم يتورع عن محاولة إقامة علاقات حميدة مع أبغا نفسه، فلم يتوان عن قبول وساطة سعى بها بعض أعوان هذا الأخير بل إنه أحسن استقبال رسل أبغا وأرسل إليه على الفور مبعوثين عليه يحقق بوسائل السلم ما لم يسهل تحقيقه بالقوة.

لكن هذه المحاولة التوفيقية باءت بالفشل. ويعود السبب في ذلك إلى تشدد السلطان، إذ إنه اشترط على أبغا أن يعيد له ما بيده من بلاد المسلمين.

ولم يكف السلطان عن السعي لإضعاف أبغا، فعلى رغم أنه كان يعرف ما يدور في خلد البرواناة، نائب السلطنة في بلاد الروم، من طموح بالاستيلاء على الحكم والتفرد بالسلطة، فقد مالاه السلطان وبادله الرسائل مشجعاً إياه على اتخاذ المواقف المناهضة للمغول، بإذلاله الوعد بالدعم والمساعدة، ولم يكتف بذلك، بل إنه أرسل سراً كبار الأمراء الروميين داعياً إياهم إلى الجهاد في سبيل الله محرضاً إياهم على التمرد والوقوف بوجه أبغا، وقد كان لتلك الرسائل صدى إيجابي لدى معظم هؤلاء، فوفد عليه العديد منهم وقاتلوا إلى جانبه ضد المغول، كما حالف السلطان جماعات التركمان بعد أن أعاد عليهم العطايا والوعود فانقلب هؤلاء بالتالي إلى أعداء للمغول.

ونظراً لثقافته الواسعة فإنه كان أحياناً يظلم الحديث عن أمر ما مستطرداً إلى أمور أخرى لا تدخل في صميم الموضوع الأساسي، أما عن منهجه في كتابة السيرة فكانت الكتابة التاريخية في ديار الشام في القرن السابع الهجري تعتمد على أحد منهجين اثنين أو على كليهما، وهما التاريخ بحسب السنين (التاريخ الحولي) أو التاريخ بحسب الموضوعات والأحداث. وراعى ابن شداد هذين المنهجين في أن معاً، فقد كان السلطان موضوع تاريخه والحوادث مرتبة على المنهج الحولي. وهو في تاريخه هذا يذكر الحادثة مع الشهر واليوم الذي حدثت فيه، فكل سنة دون حوادثها وظل يعتمد هذا النمط حتى وفاة السلطان عام ٦٧٦ هـ ويسر ابن شداد مهمة القارئ إذ وضع للأحداث عناوين تعلن عن مضمونها مختتماً كل سنة بذكر وفياتها من مشاهير العلماء والأمراء والأعيان.

أما بالنسبة للفرنج فيفهم من المخطوط أن السلطان أقام علاقات صداقة مع الفرنج بعامية والإيطاليين بخاصة، ويحدثنا ابن شداد عن العلاقة الطيبة التي كانت بين السلطان وصاحب إشبيلية والتي تجلت بتبادل المبعوثين المحملين بالهدايا السنوية، وعن وفود من جنوا بين الحين والآخر، وكذلك رسل الإمبراطور البيزنطي كل ذلك جعل السلطان مهيب الجانب داخل المملكة وخارجها، فبدا وكأنه أقوى ملك بين ملوك عصره.

وكغيره من المؤرخين من المؤكد أن ابن شداد أغفل في السيرة، دور الرأي العام وتأثيره في اتخاذ القرار من قبل السلطان، على رغم أنه أشار بصورة عابرة إلى ذلك عندما تحدث عن تراجع السلطان عن فرض ضريبة سبق له أن قررها. وتبرز أهمية السيرة في أنها تسلط أضواء كاشفة على مرحلة تاريخية مهمة من حياة دولة المماليك البحرية في عهد الظاهر بيبرس، فهي تحتوي على معلومات تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها، وهو ما فعله المؤرخون المعاصرون لابن شداد، فقد اعتمدها معظم هؤلاء مصدراً أميناً للأحداث التي جرت في تلك الحقبة.

ولم يكن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان، الذي خلف والده السلطان الملك الظاهر، أقل احتراماً وتكريماً لابن شداد، فقد جعله مستشاراً ووكيلاً له: استشاره في اختيار المكان المناسب لدفن والده، وكلفه بحل إشكالاته وشرائه، وبعد موته

أول إنجليزي يزور جدة عام (١٦٨٠م)

جدة بعدسة ذاكرة جوزيف بتس



عدنان عبدالبدیع اليافي

أول عربي يصف طريق الحج المغربي، أو درب الحجاج (البري والبحري) من بلاد المغرب مروراً بمصر حتى يصلوا إلى الديار المقدسة. ومعروف أن الأنب العربي مليء بالكثير من المعارف عن درب الحج الشامي، أي قوافل الحج القادمة من الشام، ودروب الحج العراقي، القادمة من العراق. لكن القارئ العربي كان لا يجد الكثير عن دروب الحج القادمة من المغرب مروراً بمصر وعن ما عاناه هؤلاء الحجاج في الطرق البرية والبحرية خلال نهابهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد كتب بتس كتاباً عن رحلته وسمه (رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة).

وفي مقدمة ترجمته لهذا الكتاب، ينقل مُترجمه الدكتور عبدالرحمن عبدالله الشيخ ما قاله الرحالة الشهير ريتشارد بيرتون في الملحق الخامس لكتابه (الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة) عن سيرة حياة جوزيف بتس فيقول: «إذا كان جوزيف بتس هو أول إنجليزي وثاني أوروبي بعد الإيطالي أدفيكو دي فاريتما يزور مكة المكرمة (وجدة) في التاريخ الحديث، فهو أيضاً أصغر الرحالة سناً، حتى إنني كنت أجعل عنواناً لترجمتي هذه (رحلة الصبي بتس لمصر والديار المقدسة)» (١).

ولد البريطاني جوزيف بتس في مدينة اكستر (EXETER) البريطانية الساحلية سنة (١٧٤٤م - ١٦٦٣م) ولشدة ولعه بالسفر أصبح بحاراً وهو في سن الخامسة عشرة (٢).

كان عمل بتس في البحر في فترة الحروب البحرية التي قال عنها الباحث السعودي المعروف الأستاذ أحمد محمد محمود في موسوعته التي سماها (جمهرة الرحلات) ما نقل منه هنا بصرف:

«حروب الجهاد البحري التي كان يشنها المجاهدون المسلمون ممن طردوا من الأندلس في البحر المتوسط بمؤازرة الدولة العثمانية، تلك الحروب التي أطلق عليها الأوروبيون (حرب القراصنة)» (٣).

وفي إحدى رحلاته وقعت سفينة جوزيف بتس بالأسر بأيدي بحارة جزائريين من هؤلاء البحارة وقاموا بأسره. ثم أخذ جوزيف بتس إلى الجزائر بصفته عبداً على مألوف العادة السائدة في تلك العصور، التي يبين الأستاذ أحمد محمود أن البرتغال وحدها في ذلك الوقت استعبدت عام (١٦٥٠م) مليوناً ونصف مليون إنسان من واحدة فقط من مستعمراتها -أنجولا- اليوم. كما يبين الكاتب نفسه أن تجارة العبيد ازدهرت في بريطانيا وقتها، كما يذكر أن إسبانيا وهولندا وفرنسا ساهمت في تجارة العبيد من الكاريبي وجنوب أفريقيا. ويقول الباحث أحمد محمود: إن وصف بتس لسوق العبيد في الجزائر ينطبق على نفس هذه الأسواق في بعض دول الغرب (٤).

قام سيد جوزيف بتس في عام (١٦٨٠م) باصطحابه إلى جدة ومنها

جدة مدينة تاريخية عريقة، قابعة على الضفة الشرقية من البحر الأحمر في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية، هذا الكيان الكبير الذي أسسه ووحد أرحاه وأمن طرقه جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله.

وقد أصبحت جدة اليوم مدينة عالمية بكل المعايير، يقصدها الملايين كل عام لأسباب مختلفة، فالحجاج والمعتمرون يتأون إليها في طريقهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، والسياح يقدون إليها لقضاء أمتع الأوقات على ضفاف بحرهما القزمي، والتمتع بليالي صيفها المونس، والبعض يأتي إليها من دول عربية مختلفة للعلاج في مستشفياتها المتطورة، كما يأتي كثير من الطلبة للدراسة في جامعاتها وكتلياتها المعروفة وهكذا.

وفي الماضي البعيد قبل وجود الطائرات والسيارات والطرق السريعة، في أزمته كانت وسائل النقل حينها تقتصر على الدواب والسفن الشراعية، كان الرحالة والمغامرون يتأون إلى جدة لزيارتها أو للذهاب من خلالها إلى الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. ولقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحالة والمغامرين قبيسات من ملاحم هذه المدينة في الأزمنة التي قدموا فيها إليها، سجلوها بعدسات ذكريتهم ووثقوها في كتب رحلاتهم. ولقد بدأ قدموم الغربيين من المغامرين والرحالة إلى الجزيرة العربية عمومًا وجدة خصوصًا منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

وعندما زار الإيطالي لودفيكو دي فاريتما جدة عام (١٥٠٣م) أصبح هذا

المغامر أول أوروبي يزور جدة في التاريخ الحديث. ولقد أتى إلى منطقتنا، ومنها مدينة جدة بعده كثير من الأوروبيين وغيرهم من الغربيين، ولم يكونوا جميعاً من الرحالة المستكشفين، كما أنهم لم يأتوا جميعاً إلى بلادنا بمحض إرادتهم.

وهناك فرق بين المغامرين والمستكشفين، فالرحالة المستكشفون كانوا غالباً ما يدونون السجلات، ويكتبون عن أبق التفاصيل المحيطة برحلاتهم، ويتحدثون عن الآثار التي شاهدوها، ويصفون سكان المناطق التي حلوا بها ويكتبون عن سكانها وعن منازلهم وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم وغير ذلك، ويرسمون الخرائط المفصلة للبلاد التي زاروها، بخلاف المغامرين الذين سبقوا الرحالة في القدموم إلى جزيرة العرب بعدة قرون من أمثال فاريتما وغيره، والذين كانت أسباب قدمومهم المغامرة وليس الاستكشاف. وكذلك بخلاف بعض الأوروبيين الذين لم يأتوا إلى منطقتنا بمحض إرادتهم بل اجبروا على ذلك، مثل الإنجليزي جوزيف بتس، الذي قدم إلى جدة عام (١٦٨٠م الموافق ١٦٨٠م).

ترجمة جوزيف بتس (الحاج يوسف) (Joseph Pitts): كان جوزيف بتس أول إنجليزي يزور جدة في التاريخ الحديث، وكان

نرسو كل مساء باتجاه الريح قرب صخرة أو أخرى» (١٤).

وقال: «إن البحر الأحمر ضيق حول السويس، يقصد خليج السويس»، واستطرد قائلاً: «ولما أبحرنا للطور كانت الصحراء قريبة عن يسارنا ولم نر أي ساحل عن يميننا ويُعتقد أن ماء البحر الأحمر في هذه المنطقة أشد ملوحة منه في أي مكان آخر» (١٥).

وقال بتس: إنهم مكثوا بمبحرين في هذا البحر زهاء شهر، وبعد ذلك ببضعة أيام وصلوا (رابع)، ولبس الحجاج لباس الإحرام هناك (١٦).

ومن (رابع) أبحروا إلى (جدة) التي قال عنها: «إنها أقرب الموانئ إلى مكة المكرمة التي لا تبعد عنها أكثر من يوم، وأن السفن تفرغ حمولاتها في جدة».

وقال بتس: إنهم استقبلوا عند وصولهم إلى جدة من قبل الأدلاء (الوكلاء) مندوبي المطوفين (وهذا يدلنا على عراقة وقدم مهنة الوكلاء في خدمة حجاج بيت الله الحرام ويوضح أهمية الدور التاريخي الذي يقوم به الوكلاء وباقي أرباب الطوائف من مطوفين وأدلاء وزمارة وغيرهم في خدمة ضيوف الرحمن) (١٧).

ومن جدة ذهب جوزيف بتس ورفاقه إلى مكة المكرمة. وقد وصف بتس المسجد الحرام والكعبة المشرفة وكسوتها وتحدث عن المآذن والمكبريات ومقام إبراهيم وبئر زمزم وغير ذلك.

وعندما ذهب بتس للحج تحدث عن عرفات وعن منى ومزدلفة ووصف منطقة المشاعر المقدسة وتحدث عن الحجاج ووصف طواف الوداع (١٨).

وعند انتهاء فترة إقامتهم في مكة المكرمة غادر بتس ورفاقه في قافلة سارت لمدة عشرة أيام قبل أن تصل إلى المدينة المنورة (١٩).

زيارة بتس للمدينة المنورة:

ولقد تكلم جوزيف بتس عن المدينة المنورة باختصار حيث مكث بها ثلاثة أيام، لذا فإنه لم يتمكن من رؤية المدينة جيداً ولا من التعرف على أهلها عن قرب، ولا على عاداتهم وتقاليدهم وما إلى ذلك.

ومع ذلك فقد سجل جوزيف بتس بعدسة ذاكرته بعضاً من ملامح المدينة المنورة في زمن رحلته إليها ضمن كتابه، حيث يقول: «وفي حوالي اليوم العاشر من هذه الرحلة السهلة بعد خروجننا من مكة المكرمة، دخلنا المدينة المنورة، حيث دفن الرسول صلى الله عليه وسلم، رغم أنني أعتقد أن المسافة بينهما في خط مباشر في الطريق إلى مصر لا تزيد على يومين أو ثلاثة، وذلك حتى يمكن الحجاج زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الرحيل في اليوم الثالث. ويقول عن المدينة المنورة: إنها مدينة صغيرة يحيط بها سور وبها مسجد كبير (يقصد المسجد النبوي الشريف) الذي قال: إنه أصغر من المسجد الحرام، وذكر أن بأحد أركانه مبنى مساحته حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربعة، به نوافذ ضخمة مغطاة بشبك نحاس، وداخل هذا المبنى الصغير (يقصد القبر الشريف)، بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر، وقد قيل إنه يوجد ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول القبر الشريف وهو قول غير صحيح إذ لا يوجد -كما أعتقد- أكثر من مائة (٢٠).

وقال بتس: «إنه يتم تزويد المدينة المنورة بالمؤن من الحبشة

إلى مكة المكرمة التي قضى فيها أربعة أشهر (٥) ثم توجه هو وبتس ورفاقهم إلى المدينة المنورة. وكان الغرض من رحلتهم أداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، والتشرف بالسلام عليه، صلى الله عليه وسلم. وبعد الحج أعتقه سيده وكتب له ما يفيد عتقه وعاد بتس بطووعه واختياره إلى الجزائر وعاش هناك سنوات طويلة قبل أن يغارها عائداً إلى بلاده» (٦).

خط سير رحلة جوزيف بتس إلى جدة:

بدأ جوزيف بتس رحلته إلى الديار المقدسة على ظهر سفينة استقلها من الجزائر في طريقها إلى الإسكندرية وكان ذلك عام (١٠٩١هـ - ١٦٨٠م) (٧) ووصل إلى الإسكندرية بعد حوالي أربعين يوماً من مغادرة الجزائر ومكث بها هو وصاحبه حوالي عشرين يوماً، وقال بتس عن هذه المدينة العريقة: أنه رأى أثناء تجواله بها كثيراً من الأروقة المقنطرة تحت الأرض، وأنه تصل الإسكندرية ترعة من النيل (قناة) لتصل أبارها، ومن هذه الأبار تتزود الإسكندرية الجديدة التي قال: إنها تبعد عن الإسكندرية القديمة زهاء ربع ميل وكذلك تتزود كل السفن التي تؤوي إليها بالماء العذب. وقال: إنه يعتقد أن كل أسوار الإسكندرية وبيوتاتها الحديدية ما زالت قائمة. وتحدث بتس عن الآثار القديمة التي شاهدها في الإسكندرية خلال إقامته فيها. ووصف المسجدين اللذين كانا في الإسكندرية القديمة وقال: إن أحدهما كان يطلق عليه اسم: مسجد بن بيريديك، ويُقَالُ: أن هذا الاسم يعني ألف عمود وعمود، وهو عدد الأعمدة بذلك المسجد. كما تحدث بتس عن أعمدة قديمة ضخمة وعالية، أحدها كان من السماكة بحيث أن ثلاثة أو أربعة رجال لا يمكنهم تطويقها، وارتفاعه شديد بحيث إنه حاول رمي حصاة لأعلاه فلم يستطع بلوغ القمة بالحجر الذي رماه (٨). وبعد عشرين يوماً من وصولهم إلى الإسكندرية ذهب بتس ورفاق رحلته إلى مدينة (رشيد) التي قال: إنها تبعد حوالي فرسخين عن مجرى النيل الرئيس الذي كان يسمى (بحر النيل) (٩). ونقل بتس عن من قال إنهم ثقافت: أن بعض الإيطاليين الجنوبيين (أهل جنوة) والبنادقة (أهل البندقية) يحصلون على الماء العذب من مصب النيل دون أن يعترضهم أحد (١٠).

وتحدث بتس عن تردي الأمن في تلك الفترة التي كان الحجاج يتوجهون فيها من مصر للحج وهم يحملون المال، وتحدث عن إطلاق نار لإخافة اللصوص الذين هربوا (١١).

وبعد وصول بتس ورفاقه إلى السويس اشترى ماءً غذياً لرحلتهم نحو إلى «ست بنسات» وبعد يومين في «السويس» أبحروا إلى «الطور» التي قال عنها: «إنها مدينة صغيرة جداً ذات ميناء» (١٢).

ومن الطور أبحروا إلى «بئر فرعون» التي قال: إن بني إسرائيل عبروا منه البحر الأحمر، وأنه المكان الذي غرق فيه فرعون بأمر الله سبحانه وتعالى بعد عبور بني إسرائيل. وقدّر بتس عرض البحر الأحمر في هذا الموضع بحوالي ستة فراسخ أو سبعة (١٣).

وعن إبحارهم في البحر الأحمر قال بتس: إن الإبحار في البحر الأحمر غير آمن ليلاً، إلا في موضع واحد لا يستغرق عبوره أكثر من ليلتين، وذلك بسبب كثرة الشعاب التي «ما تكاد تنتهي من رؤية بعضها حتى نرى بعضها الآخر، وأحياناً تكون قريبة من السطح، وبعض هذه الصخور أضخم من غيرها، وبعدها يبدو كجزيرة وبعضها يبرز بالفعل فوق سطح الماء وبعضها تحت سطح الماء بقليل، لذا فقد كنا

على الساحل الأخر للبحر الأحمر، فمن الحبشة تأتيهم السفن محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات، وهي سفن غريبة لم أر لها مثيلاً، فأشرعتها من حصير، كالحصير الذي يستخدمونه في بيوتهم ومساجدهم» (٢١).

مغادرة بتس للمدينة المنورة:

يقول بتس: وبعد أن قضينا في المدينة المنورة يومين، غادرناها في اليوم الثالث، ولما قطعنا عشرة أيام أخرى قابلنا عدداً كبيراً من سكان الصحراء قدموا لنا كميات وافرة من الفاكهة خاصة الزبيب، ولا أنري من أين أتوا بها. ولما وصلنا بعد ذلك بخمسة عشر يوماً لمصر قابلنا جمعاً غفيراً وقد حملوا جمالهم بالهدايا التي أرسلها الأصدقاء والأقارب للحجاج، كالحلوى وما إلى ذلك. لكن بعض من هؤلاء القادمين أتوا بقصد التجارة؛ أي لبيع المؤن الطازجة للحجاج والاتجار معهم (٢٢).

وبعد أن وصل بتس إلى القاهرة وجد مرض الطاعون منتشراً، وقال إنه: قد قيل: أن الطاعون قضى على ستة آلاف شخص خلال أسبوعين، لذا فقد أسرعوا مغابرين القاهرة إلى (رشيد) ومنها إلى (الإسكندرية) حيث وجدوا سفينة جاهزة لتنقلهم إلى الجزائر. ولكن انتشار الطاعون في الإسكندرية تسبب في إصابات بهذا المرض على ظهر سفينتهم نتج عنها أنهم القوا في البحر عشرين جثة ممن ماتوا بسببه -على حد قول بتس- الذي أصابه الطاعون مجرد وصولهم إلى سواحل الجزائر. ويقول بتس: انه نجا من الموت بالطاعون بفضل عناية الله سبحانه وتعالى (٢٣).

ولقد استمر بتس في البقاء زمناً في الجزائر ولكنه بدأ فيما بعد يفكر في الرحيل إلى بلده. أخيراً قامت معرفته بتاجر إنجليزي إلى تقديمه إلى السيد بيكر (Baker) وهو القنصل البريطاني في الجزائر آنذاك، وكانت مسألة الفدية مطروحة للنقاش. لكن القنصل لم يكن قادراً على جمع المبلغ المطلوب، وهو مئة جنية إسترليني، فأجهش بتس بالبكاء لضيق الفرضية. وبعد فترة سنحت لجوزيف بتس فرصة للسفر من الجزائر، إذ أرسلت بعض السفن الجزائرية إلى مدينة (سميرنا) التركية لمساعدة الأتراك، وكان بتس على متن إحداها. حمل بتس معه رسالة من السيد بيكر إلى القنصل البريطاني في (أزمير) وفي تركيا صعد على متن باخرة فرنسية بلباس أوروبي. وصلت السفينة بأمان إلى مدينة (ليجهورن) (Leghorn)، فمسجد بتس لله تعالى وقبل الأرض (٢٤). ولما عاد بتس إلى مدينة (أكستر) (Exeter)، التقى والده الذي كان ما زال على قيد الحياة لكن والدته كانت قد ماتت قبل سنة من ذلك. وكان وصول بتس إلى مدينة «أكستر» عام (١١٠٥ هـ - ١٦٩٣ م) ولا يُعرف تاريخ موته على وجه التحديد، لكن يُعتقد أنه كان سنة (١١٤٨ هـ - ١٧٣٥ م). ويوجد دليل قوي على أنه في عام (١٧٣١ م) كان ما زال حياً في مسقط رأسه (٢٥).

هذه قصة الإنجليزي المسلم جوزيف بتس ورحلته للحج ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومجيئه إلى جدة، كأول بريطاني يزور المنطقة في التاريخ الحديث في عام ١٦٨٠ م.

المصادر والمراجع:

- ١- بتس، جوزيف: رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ص/٧
- ٢- رالي، أغسطس: مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، تحقيق د. محمود السرياني ود. معراج نواب مرزا، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٠ هـ، ص/٩٩
- ٣- محمود، احمد محمد: الرحلات المحرمة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٣٠ هـ، ص/٣٦
- ٤- المصدر السابق، ص/٣٦
- ٥- المصدر السابق، ص/٣٦
- ٦- بتس، جوزيف: رحلة جوزيف بتس، مصدر سابق، ص/٨
- ٧- رالي، أغسطس: مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، مصدر سابق، ص/١٠٠
- ٨- بتس، جوزيف: رحلة جوزيف بتس، مصدر سابق، ص/٢٦
- ٩- المصدر السابق، ص/٢٦
- ١٠- المصدر السابق، ص/٢٧
- ١١- المصدر السابق، ص/٣٠
- ١٢- المصدر السابق، ص/٤١
- ١٣- المصدر السابق، ص/٤٢
- ١٤- المصدر السابق، ص/٤٢
- ١٥- المصدر السابق، ص/٤٣
- ١٦- المصدر السابق، ص/٤٤
- ١٧- المصدر السابق، ص/٤٤
- ١٨- المصدر السابق، ص/٦٣
- ١٩- المصدر السابق، ص/٧١
- ٢٠- المصدر السابق، ص/٧٢
- ٢١- المصدر السابق، ص/٧٣
- ٢٢- المصدر السابق، ص/٧٤
- ٢٣- المصدر السابق، ص/٧٦
- ٢٤- رالي، أغسطس: مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، مصدر سابق، ص/١٠٣
- ٢٥- المصدر السابق، ص/١٠٤



وسيلة الحلبي



الغلاف

صدر كتاب عن التراث الفلسطيني

أصدر المهرجان الوطني للتراث والثقافة كتاب (التراث الشعبي الفلسطيني.. ملامح وأبعاد) من إعداد الزميلة وسيلة محمود الحلبي حيث يوثق لتراث فلسطين الغالية الذي يحاول الصهاينة سرقة كما سرقوا التراب (كما ذكرت المؤلفة).

وقد قدم للكتاب سعادة السفير الفلسطيني في المملكة جمال الشوبكي.

وأهدت الكاتبة مؤلفها لكل من يحب فلسطين وإلى أرواح الشهداء ولكل من يتشوق للصلاة في المسجد الأقصى المبارك.

وجاء الكتاب في ثلاثة فصول، تحدث الأول عن العادات والتقاليد الفلسطينية وتحدث الثاني عن المأثورات الشعبية ودورها في الحفاظ على الهوية الفلسطينية بينما تحدث الفصل الثالث والأخير عن النقود الفلسطينية وغير ذلك.

وجاء الكتاب في 198 صفحة من القطع الكبير وأودع في مكتبة الملك فهد الوطنية برقم ردمك 2-17-978-603-8043.

الجدير بالذكر أن الزميلة وسيلة هي عضو الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وكاتبة في الجزيرة.

الوجه الآخر لأمر منطقة الرياض .. في " سيرة توثيقية " ..

الحמיד: سلمان بن عبدالعزيز بحق هو المؤرخ الأول المعاصر في بلادنا.. ممارسة وهواية ودراية

عبدالعزیز وولي عهدہ الأمير سلطان بن عبدالعزيز - حفظهم الله وأيدهم. ويضيف الحمد "خمسون عاما من تاريخ نجد سطرها سلمان بعقله وفؤاده وشبابه ورجاله عمرانا بشريا فريدا في المجالات شتى: التنموية والاجتماعية والمعرفية والاقتصادية والصحية والعمرانية".

ويواصل "وسلمان بحق هو المؤرخ الأول المعاصر في بلادنا؛ ممارسة وهواية ودراية وهو رئيس مجلس إدارة دار الملك عبدالعزيز والرئيس الفخري للجمعية التاريخية السعودية ومؤسس جائزة ومنحة الأمير سلمان لدراسات الجزيرة العربية، فضلا عن كونه أمير منطقة الرياض".

جاء الكتاب في ما يقرب من ٢٩١ صفحة من القطع الكبير، وتضمن ستة فصول رئيسية، إضافة إلى أربع ملاحق ضمت الوثائق، والمطبوعات والصور والخرائط.

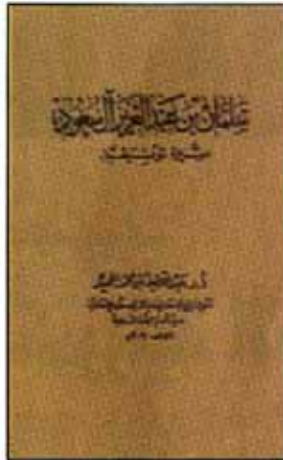
وتناول المؤلف في الفصل الأول من الكتاب السيرة الشخصية لسمو أمير منطقة الرياض من خلال رصد مولده ونشأته وتربيته والده رحمه الله له، وأثرها في تكوينه، وفضل والدته وحنوها عليه، وحشد الكاتب كثيرا من الأشياء النادرة التي قل تناولها في الكتب الأخرى، كما افرد عدة صفحات لأبناء سمو الأمير وأحفاده، وقدامى رجاله والعاملين معه، وما حازّه من أوسمة وجوائز، إضافة إلى تناول ما حوته مكتبته الخاصة من كتب.

وفي الفصل الثاني رصد الكاتب جهود صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود في منطقة الرياض، وكيف تحولت على يديه إلى إمارة مركزية تضاهي كثيرا من العواصم الأجنبية المتميزة.

وتناول الكاتب عدة مناطق في الرياض بالوصف والتحليل في مسيرة التطوير، منها منطقة قصر الحكم بالديرة، وحي السفارات، وإسكان الخارجية، ومدينة جامعة الملك سعود، ومدينة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتطوير الدرعية التاريخية وغيرها، من خلال نظرة للرياض قديما، ثم مراحل تطور المدينة بالتفصيل، وتطوير الدرعية على يد سموه، ونهجه حفظه الله في الوقوف المباشر على شؤون المحافظات، والجوائز التي حازها بمدينة الرياض.

وفي الفصل الثالث رصد المؤلف علاقة الأمير سلمان بأهل الثقافة والتاريخ، مستعرضا جائزة ومنحة الأمير سلمان السنوية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية كمثال محسوس على عناية سموه بالتاريخ ومؤرخيه.

كما تناول في الفصل نفسه جهود سموه في رعاية التعليم، راصدا عدة



غلاف الكتاب



الدكتور عبد اللطيف الحמיד

عرض : محمد الحسيني

صدر حديثا للدكتور عبد اللطيف بن محمد الحמיד الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتاب بعنوان "سلمان بن عبدالعزيز آل سعود .. سيرة توثيقية"، ليحتل واجهة الإصدارات الحديثة بما حواه من توثيق فريد لمراحل حياة أمير منطقة الرياض، وجهوده الكبرى في مختلف المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وكذلك على الصعيد الإنساني والخيري والثقافي، كما ضم تحليلا لشخصية سمو أمير الرياض، وأبان وجهها آخر له لا يعرفه سوى القليلين.

يقول المؤرخ عبد الرحمن الرويشد،

معلقا على مسودة الكتاب "وقد أحسنتم عندما أشرتم في سيرة هذا العلم تقدمه لنشأته وثقافته ولكل ما له صلة بخلفيته التاريخية والإدارية، وجهوده في أعمال البناء والعطاء المتجدد، وأسندت ذلك للرؤى والحقائق والحضور الواقعي، وشهادات من لهم موقور الصلة بسموه، وحسن الاقتباس مما تحدث به وكتبه النقات عنه، بهدف الاقتراب من إصابة كبد الحقيقة، فاستطعت بذلك التمييز أن تقرب بين الموضوعات المتباعدة، وأن تجمع بين ما كان منها متفرقا، بالإضافة إلى توخي الحقيقة، بالرصد والتدوين، بما لا أتذكر أن أحدا قد تناول تلك السيرة بمثل تلك الخصوصية، رغم الزخم الذي تناول مساحة كبيرة عن حياة هذا الأمير.. وبالوقت نفسه استطعت أن تتجنب ما كان صاحب السيرة سمو الأمير سلمان يسعى دائما إلى الدعوة إليه، وهو تجنب المبالغة والتزديد في القول عند التحدث أو النشر عن أعمال وإنجازا، سموه، أو وصفها بالمعجزات فقد عرف عن سموه، أنه لا يستطيع صد المتحدث أو الكاتب عن ذلك، لما فطر عليه من دمانة خلق، إلا أنه لا يتراح إلى ذلك، وكان يحمل كل ما يقال على حسن الظن والتعلق بشخصه الكريم

ويواصل الرويشد: "جاءت هذه السيرة مبرأة من الهنات موثقة وغنية بذكر الحقائق من خلال الرصد المدون وواقع الحضور والمشاركة، بفضل ما بذلتموه من جهد مضمّن وصدق في القصد.. زانكم الله توفيقا وحرصا".

يقول الدكتور عبد اللطيف الحמיד في مقدمته: وهذا الكتاب التوثيقي عن سيرة وأعمال الأمير سلمان أمير منطقة الرياض - حفظه الله - يتناول بالعرض والتحليل والاستنباط بأقوال المعاصرين أبرز محطات حياته المباركة وإنجازاته المشهوددة طيلة نصف قرن من الزمان في مرحلة مهمة من تاريخنا الوطني منذ عهد الملوك: عبدالعزيز وسعود و فيصل وخالد وفهد رحمهم الله إلى حاضرنا الزاهر في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن



الأمير سلمان بن عبدالعزيز

جهات منها الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بالرياض ، ومؤسسة الرياض الخيرية للعلوم ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، ومدارس الرياض ، ومركز الأمير سلمان الاجتماعي ، ومركز الجاسر الثقافي ، ومعهد الأمير أحمد بن سلمان للإعلام التطبيقي ، إضافة إلى كرسي الأمير سلمان للدراسات التاريخية في جامعة الملك سعود .

وضم الفصل الرابع عرضاً شاملاً لأوجه العمل الخيري والإنساني التي يضطلع بها الأمير سلمان ، ويعمل على تنميتها وتطويرها بين فترة وأخرى ومنها جمعية البر بالرياض ، والجمعية الخيرية لرعاية الأيتام " إنسان " ، والمركز السعودي لزراعة الأعضاء ، ومركز الأمير سلمان لأمراض الكلى ، وجمعية الأمير فهد بن سلمان الخيرية لرعاية مرضى الفشل الكلوي ، ومركز الأمير سلمان لأبحاث الإعاقة ، واللجنة العليا لأوقاف جامعة الملك سعود ، ومشروع الأمير سلمان للإسكان الخيري ، حيث فصل المؤلف في الحديث حول أهداف المشروع ، وتمويله ، بالإضافة إلى تكريم سموه لرواد العمل الخيري ، وجهوده في المجال العربي والإسلامي .

أما الفصل الخامس فضم توثيقاً تاريخياً للزيارات الميدانية التي قام بها سمو أمير منطقة الرياض لمختلف مناطق الرياض منذ عام ١٣٩٢هـ ، ومنها زيارات تاريخية لبلدان سدير والرفي والوشم والشعيب والمحمل والمزاحمية وضمراً ، فيما أفرد صفحات مطولة لزيارة الأمير إلى شقراء والوشم وافتتاحه لمشروع مياه الوشم الكبير .

واختتم الدكتور عبد اللطيف بن محمد الحميد كتابه بعدة دراسات بحثية تناولت عدة أوجه للأمير سلمان لا يعرفها الكثيرون ، فيما عرج خلالها على دراسة وتحليل الصفات المميزة التي يتحلى بها أمير منطقة الرياض ومنها الشهامة والإباء والوفاء ، ووصفه المؤلف بأنه " رجل في دولة " .
بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الملاحق والوثائق وما نشر في المطبوعات